المحاضرة الثالثة

بواعث فلسفة التاريخ ومميزات الفلسفة التاريخية

بواعث فلسفة التاريخ:

اتفقت الدراسات التاريخية والفلسفية على عدم وجود مصطلح فلسفة التاريخ في الفلسفة ودراسات التاريخ ، حتى جاء به الاديب والفيلسوف الفرنسي فولتير. لكن هذا لا يصرح لنا القول بعدم وجود تفكير تأملي وتحليلي وباطني وتفحصي للتاريخ قبل الاصطلاح، ولاثبات ذلك نحاول في هذه المحاضرة تتبع اهم الإشارات والتنبيهات التي تطورت الى نظريات عند الفلاسفة منذ تلك اللحظات التأملية وحتى ظهور المصطلح .

تذهب فلسفة التاريخ الى عدم عد التاريخ دراسة لأحوال الماضي فحسب ، بل ما يعطي التاريخ خصوصيته كونه يبحث في تعاقب الحوادث وتطور فعل الانسان على مر الأزمان، **والزمان** هو احد اهم ركائز التاريخ والذي لا تاريخ من دونه، وهو يحمل في مسيرته تلك النقاط التحولية لمراحل الامم المختلفة، كذلك الحال بالنسبة الى **المكان** الذي اتفق الفلاسفة والمؤرخون على انه من اهم اركان المسرح التاريخي فلا تاريخ بدون مكان ، اما **الانسان** فقد كان المكمل الرئيسي للدائرة التاريخية ، ولان الانسان من ضمن دائرة التاريخ ، كان لا بد من ان يحمله الى محمل العقل والادراك ، والانسان صاحب التفلسف صور لنا تلك المراحل التي مر بها الانسان وهو يتأمل تاريخه.

ومعلوم ان التاريخ يرتبط بالماضي الانساني، فان سعة هذا الماضي وتنوعه الموضوعي من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ترتبط بالمستوى الحضاري الذي كان عليه الانسان في حقبة من حقب التاريخ، وبكل مجتمع من المجتمعات التاريخية، فتاريخ المجتمعات البدائية يختلف عن تاريخ المجتمعات المتقدمة وتاريخ المجتمعات الحضرية لا يتطابق مع تاريخ المجتمعات البدوية او الريفية ، وذلك لان احتياجات الانسان في كل مجتمع من هذه المجتمعات تختلف عن احتياجات الانسان في المجتمع الآخر، في ضوء ما تقدم، فقد اختلف تاريخ كل مجتمع من المجتمعات المذكورة آنفا عن الآخر تبعا لطبيعة المستوى الحضاري الذي بلغه ، وتبعا لطبيعة اهتماماته العامة. ومثالا توضيحيا على هذه الناحية تشير المصادر التاريخية أن التاريخ الهندي لا يولي اهتماما بالدولة ومؤسساتها على النقيض من التاريخ الاوربي، ففي الوقت الذي نظم فيه الاوربيون معرفتهم التاريخية استنادا إلى فكرة الدولة بقي سكان الهند غرباء عنها لانها لم تتجسد في مؤسساتهم بشكل يحسونها فيه . وهكذا يبدو فقدان التاريخ السياسي نتيجة طبيعية لغياب الدولة ، وبسبب هذا الغياب تمسي وظائف الدولة الضرورية في ايدي غزاة غرباء، وهذا ما يحدث غالبا في القارة الهندية التي شغلت من جهة اخرى بالبحث عن مبادئ حياة روحية عرفت بها، فأشغلت ذاكرتها بما يعمر هذا المنحى الروحي وما يجعله ارثاً يلون حضارتهم بلونه.

معلوم ان اقدم وأهم الحضارات الانسانية القديمة هي حضارات وادي الرافدين ، ووادي النيل ، واليونان ، والرومان، ولقد اوضحت المكتشفات الآثارية أن بلاد وادي الرافدين قد عبرت عن

احساسها بالتاريخ من خلال اهتمامها بتسجيل تجارب الاجيال الماضية وخبراتها ومنها اعمال الملوك والحكام، ومحاولة تفسير التاريخ البشري العام بالرموز الاسطورية مثل خلق الانسان ومكانته في نظام الكون والحياة وظهور المجتمع وانظمة الحكم، وقد استخدم العراقيون القدماء حادثة الطوفان كحد فاصل بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث، وكان من اهم المدونات التاريخية التي وصلت إلى ايدينا عن العراق القديم جداول الملوك وهي ثبت بأسماء الملوك والسلالات وسني حكمهم ، نظمها الكتبة عند مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، واشهر هذه الجداول هي جداول الملوك السومريين التي ذكرت اسماء وسني حكم الملوك الذين تعاقبوا على حكم البلاد منذ أقدم العصور السابقة للطوفان وحتى تاريخ تدوينها.

كما خلف لنا الآشوريون مدونات تتضمن جداول بأسماء الملوك الآشوريين ومن عاصرهم من الملوك البابليين مع الاشارة إلى العلاقات السياسية بينهم بإيجاز، وقد اطلق الباحثون المعاصرون على هذا النمط من التدوين اسم (التاريخ التعاصري).

أما البابليون فقد دونوا التاريخ على صورة حوليات على اساس تسلسل السنين فدونوا اهم الاخبار والاحداث في بلاد بابل و آشور منذ عهد تجلاتنلصر الثالث وحتى عهد الملك السلوقي سلوقس الثالث، اضافة إلى ذلك فقد خلف لنا البابليون والآشوريون نصوصا مطولة عن مآثر الملوك والملوك الذين شغفوا بتخليد اعمالهم العمرانية وحملاتهم العسكرية فدونوها على التماثيل والنصب واللوحات الجدارية.

وعلى الرغم من أن المدونات المذكورة آنفا كانت مدونات عامــة لــم تنسب كتابتها إلى كاتب معين او مؤرخ متخصص ، فان تاريخ العراق لم يخل على ما يبدو من وجود مثل هؤلاء الكتاب. فقد أشير إلى وجود مؤرخ عراقي اسمه (**برعوشا**) عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد اسماه اليونان (**بيرسوس**) او (**بيروس**). وقد الف كتابه في تاريخ بابل باللغة اليونانية، وكان هذا الكتاب مصدراً مهماً للمؤرخين في العالم الاغريقي - الروماني وذلك لندرة المصادر الاخرى، وعلى الرغم من أننا في الوقت الحاضر لا نملك سوى مقتطفات من اجزائه الاخيرة غير الموثوقة، الا أن قيمتها تزداد يوما بعد يوم.

أما الوعي التاريخي في بلاد النيل بلاد وادي تمثل بوضع التقويم الشمسي في نحو سنة ٤٢٣٦ ق . م، وكان هذا التقويم يقوم على اساس تقسيم السنة الشمسية إلى ثلاثمائة وخمسة وستين يوما، وكانت هذه السنة تتألف من اثني عشر شهرا ، ويتألف كل شهر من ثلاثين يوما.

كما عرف المصريون القدماء التدوين التاريخي على اساس (الحوليات) وقد امكن التعرف على المدة ما بين (٣٤٠٠ ق.م ٢٧٠٠ ق.م)، من خلال احدى قوائم الحوليات التي اشتهرت باسم لوح (**بالرمو**)، وتشير المصادر إلى وجود مؤرخ مصري عاش في القرن الثالث قبل الميلاد وكان معاصرا للمؤرخ العراقي برعوشا، وقد عرف باسم (**مانيتو**) وقد قام هذا المؤرخ الذي كان كاهنا بناءً على طلب بطليموس فيلادلفيوس بمهمة جمع قوائم ملوك مصر وعهودهم وترجمتها إلى اللغة اليونانية، وكان ما تبقى من عمل مانيتو في هذا الشأن هو الاساس الذي بنى عليه علماء الآثار المصرية ترتيبهم ودراستهم لتاريخ مصر القديمة.

كان اليهود واهم اصحاب ديانة سماوية في خدمة التاريخ فقد ذكر بعض الباحثين انهم قد وجدوا في بعض أسفار التوراة القديمة وعيا تاريخيا واضحاً، وقد تمثل ذلك بسرد سلاسل انساب بنى اسرائيل، فضلا عن القصص والروايات التي تستهدف تمجيد مملكة العبرانيين تحت حكم داود وسليمان ، وابراز عظمة هذه المملكة في شيء كثير من المبالغة، كونهم حرصو على تدوين

اخبارهم معتمدين فكرة العناية الالهية في توجيه احداث ذلك التاريخ ، ووضعه في اطار من التعاليم الدينية والاخلاقية العامة.

اما الصينيون فقد أولو التاريخ السياسي للدولة عناية كبيرة ، فألفت في القرن السابع قبل الميلاد لجنة في العاصمة لتسجيل الاحداث المهمة لديهم وهي تشمل تاريخ أسر خاصة وملخصات حولية ومذكرات مختلفة الانواع وتراجم وسير، وقد لوحظ في هذه الكتابات انها لم ترتفع عن مستوى الطريقة الحولية في تدوين التاريخ، كما أن المؤرخين الصينيين لم يضعوا هذه الكتابات موضع النقد والتمحيص.

اتبع اليابانيون منهجاً شبيها بالمنهج الصيني في كتابة تاريخ الاسر الحاكمة في بلادهم على اساس الطريقة الحولية في التدوين، ويرى بعض الباحثين أن كتابة التاريخ الياباني لا ترجع إلى أبعد من القرن السادس قبل الميلاد، وقد جمعت اقدم الوثائق التاريخية اليابانية سنة ٧٢٠م . ونظمت على شكل حوليات ، وقد شاب هذه الكتابات كثير من المبالغات والاساطير التي تعبر عن طريقة نظر الناس إلى الأمور فى تلك الحقبة المبكرة من التاريخ .

اما اليونانيون فقد حملوا مشعل الثقافة والحضارة بعد أن تراجع دور سكان وادي الرافدين ووادي النيل في هذا المجال ، ومعروف أن بلاد اليونان كانت احتكاك دائم بشعوب الحضارتين، بسبب القرب الجغرافي والتفاعل الحضاري. فكان من الطبيعي أن يحملوا مشعل الحضارة من بعدهم ، وان يسعوا الى تطوير منجزاتهم في شتى المجالات الحضارية ، وكان من بينها الدراسات التاريخية.

اشار الباحثون إلى أن الحس التاريخي عند اليونانيين قد ظهر منذ زمن بعيد ويمكن تلمس صور منه في الاشعار المنسوبة إلى هوميروس والذي يعد من شعراء الحقبة الكلاسيكية والتي حددها بعض المهتمين بالتاريخ اليوناني في 850 ق.م، وكانت اشعاره شفوية وتتناقل عن طريق الحفظ حتى ميلاد الكتابة التاريخية الحقة التي لم تظهر عندهم الا في القرن السادس قبل الميلاد بعد أن توافرت الشروط الضرورية لظهورها، وكان ابرزها ظهور الكتابة النثرية والنظرة الناقدة إلى الاساطير الشائعة ، وجاء ذلك منسجما مع ظهور الحركة الفلسفية في بلاد اليونان . وفضلا عن ذلك فقد كان لنمو النشاط التجاري بين بلاد اليونان والمشرق ، واشتعال الحروب بينها وبين بلاد الفارس أثر فى اهتمام المؤرخين اليونانيين بالجغرافيا ودراسة اخلاق الشعوب وعاداتها وتقاليدها وسائر أحوالها الحضارية.

اخذ المؤرخون اليونانيون يعبرون عن هذه النظرة إلى التاريخ بصور ومستويات مختلفة ومن ابرز مؤرخيهم: **هيكاتايوس** والذي انتقد الروايات والاساطير اليونانية القديمة التي تدور حول نشأة الخلق، كما انه كتب في الانساب, **هيروتوت** وكان رحالة كثير السفر والاطلاع، كتب في الحروب اليونانية الفارسية، وكتب في حياة اكثر من مئتي شعوب وقبائل متباينة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية، الا ان اسلوبه كان قصصي واحيانا يعتمد الخرافة والاساطير.**بوليبوس** وهو من كبار مؤرخي الامبراطورية اليونانية وكتب في تاريخها وجيوشها وأهم ملوكها.

وعند الحديث عن الرومان ومساهماتهم في خدمة علم التاريخ ، فإننا لن نعثر على جديد في هذا المجال، فقد استمر مؤرخوهم في معالجة المواضيع نفسها التي عالجها المؤرخون اليونانيون من قبلهم وان كان مستوى معالجتهم اضعف سواء من حيث المنهج او المضمون.

الاستعمال الفعلي للفلسفة التاريخية وبشكل مقصود كان في القرن الرابع الميلادي بعد ان تحول التاريخ إلى ايدي القساوسة والرهبان وبقي فيهم طوال العصر الوسيط أي زهاء الف سنة من الزمان ، وكان من وراء ذلك أن غدا التاريخ خاضعاً للاهوت مسخراً له، وهو ما لم يكنه من قبل، وانه فقد كل صفة علمية وانه اصبح عملياً تعليمياً، كان يتصف بها واصبح لا يكترث بحال لما هو حق او محتمل الوقوع ، وانـه غدا مشحونا باخبار الخوارق والكرامات غير معني الا بماله صلة بالدين، ويمكن القول ان الغرب خلال العصور الوسطى كانت في ركود و تخلف حضاري ، أما دار الاسلام

التي بدأت فيها معالم نهضة حضارية كبيرة منذ مطلع القرن السابع الميلادي بفضل ظهور الاسلام وانتشاره ، فان تطور البحث التاريخي فيها قد اتخذ مساراً مختلفا عن المسار الذي كان عليه في اوربا، فظهر كتابة القران وكتب الحديث وتدوين الاحداث التاريخية وفق التاريخ الهجري، وكتابة المعارك والاحداث المهمة للعرب المسلمين، واستمرت الامور جيدة عند العرب المسلمين الى ان بدأت الامبراطوريات والكبيرة تتوسع على حساب الحكم الاسلامي.

وبعد يمكن ان نعده (فلسفة التاريخ) تستند الى اصول المسيحية والفكر المسيحي معا، صاغها القديس أوغسطين 354-430 م ، اشهر أباء الكنيسة اللاتينية، في كتابه (مدينة الله)، حاول فيه ان يتأمل مسيرة التاريخ البشري على وفق الدين وتصورات الفكر الديني ليفسر الواقع ويستشرف، المستقبل، وهو يقابل فكرة التنبؤ التاريخي.

تمثل نظرية (العناية الإلهية) ، عند القديس أوغسطين مدخل لدراسة الفكر التاريخي ، والذي تطور في عصر التنوير الى (فلسفة التاريخ) ، وهو أول من كتب في فلسفة التاريخ ، حيث ألف كتابه (مدينة الله) على الرغم من انه لم يكن مؤلفا او فيلسوفا ، وانه كان رجل لاهوت ، وقد عرض آرائه حول مسيرة التاريخ وغايته، في إطار تصوراته الدينية وتفسيراته للكتاب المقدس عند المسيحيين (39) وهو يرى: **ان النبي هو الذي سيجلب الطمأنينة للمظلومين والمبتلين ، بإعلان حكم الله على الواقع بالهلاك ، وإعلان ما سيحل محله " أنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة ، أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله "** .

حاول اوغسطين ان يكتب تاريخ للعالم كله منذ البداية تمهيدا لحجر الزاوية عنده الا هو مولد السيد المسيح، كان اوغسطين يرفض وجود الصدفة في احداث التاريخ لان كل شيء مقدر بعناية الالهية، وان التاريخ يسير بخط مستقيم من نزول آدم إلى مملكة الله النهائية، ومنه قسم التاريخ البشري إلى سبعة اقسام هي:

1-من ادم الى الطوفان . 2-من الطوفان الى إبراهيم.

3- من إبراهيم الى داوود . 4- من داوود الى الأسر البابلي .

5-من الأسر الى ميلاد المسيح . 6-من ميلاد المسيح الى أوغسطين (العصر الحاضر).

7- نهاية العالم .

ويمكن القول ، انه قدم أول نظرية في فلسفة التاريخ تستند الى أسس لاهوتية مسيحية ، فظهرت منذ ذلك الحين تفسيرات للتاريخ وتصورات مختلفة لكيفية مسيرته تستند الى العقائد المسيحية في المقام الأول . وتركت هذه التفسيرات أثرها في الفكر الغربي طوال القرون الوسطى.

أتى ابن خلدون (1406-1332م) بعلم جديد، لم يسبقه احد إليه هو (فلسفة التاريخ) ، وكان يدرك ذلك تماما ؟ وفلسفة التاريخ التي لم تظهر في أوربا إلا بعد ذلك بعدة قرون. وكما أسلفنا الذكر ان التفلسف في التاريخ بدأ منذ القدم، فنجد بعض آثاره في (كتاب السياسة) لأرسطو، وكتاب (الجمهورية) لأفلاطون، أما التعبير نفسه فلم يستحدث إلا في القرن الثامن عشر. تقوم دراسة ابن خلدون ، للتاريخ من خلال اهتمامه في دراسة الاجتماع الإنساني الذي هو **عمران العالم** ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال واعتبر هذه الدراسة هي المعول عليها لمعرفة التاريخ وأحداثه الماضية، لبيان حضارة الأمة ، ومعرفة كل ما يتصل بها من مفاهيم وقوانين وسنن كانت مؤثرة في ولادتها ونموها ونهضتها ، ومن ثم ضعفها وتحللها وانهيارها ضمن هذا المنهج وجدنا ابن

خلدون ، قد اختلف عن المؤرخين الآخرين الذين اهتموا لأثر الفرد والبطل، بينما كان هو مهتما لتاريخ العمران الذي عنده هو الأساس في رقي الحضارات وسقوطها، وهذا التوجه في فكره قد جعل الباحثون والمؤرخون العقلانيون يعدونه ، قد سبق المؤرخين الأوائل . وتفوق عليهم وعلى جميع الذين جاءوا بعده بعدة قرون على المستوى العالمي . وهذه النظرة الشاملة في موضوع التاريخ، من النظرات الخاصة ما يسمى عادة بأسم (تاريخ الحضارة).

اثبت ابن خلدون ثلاث قضايا تشكل الدعائم الأساسية لفلسفة التاريخ :

1- ان التاريخ علم من العلوم، تعتمد في دراسته مناهج العلوم الطبيعية ، يستخلص منها قوانين يمكن تعميمها على الظواهر التاريخية .
2- ان التاريخ، من هذه الناحية ، يعد فرعا من فروع الفلسفة .
3- تصوره الواضح للتاريخ الكلي ، وتمييزه عن تاريخ الأمم . ولا شك ان فلسفة التاريخ إنما تعني بالتاريخ الكلي ، الذي افرغ له ابن خلدون ، مقدمته بتمامها ، وهكذا اقام منذ البدء ما تقوم عليه فلسفة التاريخ من أسس ، فاستطاع ان يحقق نجاحا في بناء نظرية متكاملة وشاملة في فلسفة التاريخ.

وعليه فأن فلسفة التأريخ تتميز بالمبادئ التالية:

1-**الكلية** : تؤكد وحدة وترابط حوادث التاريخ ومراحله .

2- **السببية (العلية)** : السعي لاختزال العلل الجزئية إلى قوانين كلية تتجاوز الزمان والمكان , ليفسر على ضوئها التاريخ الكلي بعد إعادة بناء الوقائع بشكل منطقي .

4- **المستقبلية** : هي لا تقف عند أحداث التاريخ بل تتجاوز إلى المستقبل وبذلك وحدث الأزمنة الثلاثة وحفزت الإنسان على أن يجتهد من أجل تحقيق أهدافه المشروعة .

اهم المصادر المعتمدة في اعداد المحاضرة:

1-هاشم يحيى الملاح، المفصل في فلسفة التاريخ.

2-حامد عبد الحمزة محمد، اشتغالات فلسفة التاريخ من الاصول حتى الاصطلاح.

3-جميل موسى النجار، فلسفة التاريخ